التوأمان: الشرق والغرب — ٤

غربٌ يغرب وشرق يُشرق

لميخائيل نعيمة

كانت الحرب الماضية خاتمة لعهد وفاتحة لعهد من حياة البشرية على سطح هذي الارض. فبدخولها دخل الغربُ دور التصفية فأخذت أمواجه في الانكفاء. ودخل الشرق دور التعبئة فأخذت أمواجه في الامتداد

وما الحرب التي ننوء بكابوسها اليوم غير مرحلة من مراحل هاتيك التصفية وتلك التعبئة ومن ظنّها المرحلة الأخيرة كان على ضلال مبين. فحياة البشرية، ما كرّ منها وما برح ملفوفاً على بكرة الزمان، أطول من أن تقاس بحركات عقرب في ساعة. وأدوارها لا تتعاقب بسرعة الليل والنهار. فالفجر الذي يفصل دوراً عن دور قد يطوي من الاجيال أكثر من واحد أو اثنين

وما نحن في طليعة فجر ينذر بانتهاء دور ويبشر بابتداء آخر. أما كم يطول هذا الفجر، ومتى ينجلي عن صباح جديد ونهار جديد — أفي هذا الجيل أم في الآتي — فجواب ذلك ليس عندي، بل عند من « ألف سنة في عينيه كيوم أمس العابر وكهجعة من الليل ».

وسواء أطال ذلك الفجر أم قصر فالأمر الذي لا شك فيه هو ان ما تشهدونه اليوم من غليان في العالم وفوران، وما تسمعونه من ضجيج وجلبة ليس سوى حشرجة مدنية تحتضر، ووعوعة مدنية تتقبلها الاقدار من رحم الايام التي ما تنفك حبلى وما تنفك تولّد

انّ ما وقع للشرق في سالف الزمان لشبيهٌ كل الشبه بما هو واقع للغرب في هذا الزمان. فكما امتدت مدنية الشرق وأساسها الدين — الى أن غمرت المعمورة بأسرها، كذلك امتدت مدنية الغرب — وأساسها العلم — الى أن طغت على كل أمة وبقعة من أمم الارض وبقاعها. ونظير ما دين الانبياء والاصفياء، من بعد أن انحدر الى الدهماء والغوغاء، احتجبت أنواره في دياميس من الخرافات والترهات، وتكسرت أمواجه على سدود من التعصب الكافر، هكذا علم العلماء، وقد تناولته ألسن الجهلاء وأيدي المستثمرين والنفعيين، أصبح منجنيقاً

لهدم كل علم عداه ، ومهمازاً لكل هوًى طائش ، وشهوة جموح ، وبوقاً للتبجّح في فم كل زعنفة ما أهمّه الحقيقة ان يرى وجهها سافراً

ان في الكون الذي نحن بعض منهُ اسراراً لا يزال العقل بعيداً جدّاً عن الوصول الى كنهها وفي جملة تلك الاسرار سرّ التوازن ولعلهُ من الكون في منزلة حجر الزاوية من البناء فالمكونة بكل ما فيها — ما ظهر منها وما استتر — في توازن أبديّ. وحيثما طرأ أقلّ اختلال في توازن أقل عضو من أعضائها أصلحتهُ في الحال. اما الوسائل التي تلجأ اليها لتعديل الخلل في توازنها فأكثر من أن يحصيها عدّ ، وأبعد حكمةً من أن يدركها عقل

ما زلزلت الارض زلزالها، ولا كان كسوف او خسوف ، ولا تطايرت الشهب في الفضاء، ولا هبت عاصفة ، أو انهمر سيل ، ولا كان بحر عدّم وجزره ، ولا يابسة بجبالها وأوديتها الاّ لحفظ التوازن الكوني من خلل طارئ. كذلك هي الحال في عالم الانسان . فلولا خلل يطرأ على توازن كلّ منا بمفرده لما عرفنا المرض ولا الوجع ولا الموت ولا المصائب بأنواعها

ولولا خلل يطرأ على توازن الامة لما عرفت القلاقل والثورات والمجاعات والعسف والظلم والانحلال . ولولا خلل يطرأ على توازن الانسانية بأسرها لما كانت الحروب ، والاوبئة ، والاضطهادات والتقلبات في انواع الحكم ووجهة النظر

ولكن حذار ان يتبادر الى ذهن أحد منكم انني ابارك الموت والوجع والثورات والاوبئة والحروب لانها بعض من الاساليب التي تلجأ اليها الحكمة الازلية لصون التوازن في عالم الانسان. اجل. انها الدليل على وجود تلك الحكمة. ولكنها ، في آن ، دليل على جهل الانسان لسرّ التوازن والحكمة التي اوجدته . فلا سبيل للانسان ، اذا ما شاء الانعتاق منها ، الاّ الانصراف بكل قواه الجسدية والروحية الى تفهم ذلك السرّ والوقوف على تلك المشيئة التي جعلت منهُ حجر الزاوية في بنيان الكون وبنيان حياة الانسان

اما قصدي من الكلام عن هذه الامور فليس اكثر من ان امهد تمهيداً سريعاً للفكرة التي هي نواة حديثي، وهي التي تدور حول اختلال التوازن ما بين الشرق والغرب. وهما توأما البشرية، بل ساعداها، بل الكفتان في ميزانها . وهذا الاختلال في التوازن قد بدأ يقلب مدّ الغرب الى جزر ، وجزر الشرق الى مدّ . وطلائع هذا الانقلاب ليست بخافية عن كل ذي بصيرة

عند ما حمل الشرق مشعل الدين الى العالم حصر جل همه في قلب الانسان وما انطوى عليه من الاشواق المحرقة لمعرفة من هو ، ومن أين ، والى أين ، ولماذا . أما عقله فقلما أعاره اهتماماً . والعقل هو الدرجة الاولى في سلم المعرفة . فكأن الشرق حاول ان يبلغ بالانسان اعلى درجة من سلم المعرفة من غير ان يطأ الاولى

لئن كان ذلك في مستطاع الانبياء والرسل والاولياء فما هو في مستطاع الذين لا يبصرون من العالم ما كان ابعد من انوفهم؛ والذين لا يؤمنون الآ بما يبصرون . وهم سواد النـاس لذلك نام العقل ، ولكن على مضض . فما ان دار الزمان دورته ، وفترت الحماسة الدينية حتى احست البشرية خللاً في التوازن ما بين قلبها وعقلها . فتنبه العقل وراح يطالب بقسطه من حياة الانسـان . وحمل الغرب راية العقل ، وأجلسـه على عرش من الوقار ، وانبرى يناضل باسمه . ومن هذا النضال انبثقت المدنية التي عشنا ولا نزالُ عائشين في كنفها طوال هذه الاجيال

غير ان هذه المدنية ، لشدة مغالاتها في الامانة للعقل واندفاعها في خدمته ، قد اهملت القلب البشري وحنينه الابدي الى ما وراء المعقول والمحسوس . فهي قد صرفته ، او حاولت صرفه ، عن الدين ، ولكن من غير ان تعطيه جواباً افضل من جواب الدين على اسئلته الملحة من أنا ؟ ومن أين ؟ والى اين ؟ ولماذا ؟ فما ان بلغت اقصى مداها حتى عادت البشرية فأحست من جديد خللاً فظيعاً في التوازن ما بين عقلها وقلبها . وعادت الحكمة التي لا تحد تصلح ذلك الخلل بشتى الوسائل من ظاهرة وخفية . ومنها هذه الحرب التي يكاد الناس يغرقون في غمارها ويختنقون بدخانها

وكأني كما أنصتُّ في هذه الايام الى قلب الانسانية الدامي سمعته يخاطب عقلها فيقول :

«ألا بوركت يا أخاه . فلقد جئت حقًّا بالمعجزات . لقد خرقت حرمة الاعالي. وفضضت بكارة الاعماق . وحشرت اجرام السماء في عدسية مرقبك . وفضحت أسرار الجراثيم بعين مجهرك . واتخذت من البرق رسولاً لافكارك . وجعلته قنديلاً في دارك

«ولقد أرحت الثور من نيره ، والجواد من مركبه ، والحارث من محراثه ، والحطـاب من فأسه ، والحداد من كوره ومطرقته وسندانه

« ولقد دخلت بسحرك جوف الارض فقرأت تاريخها في ما سطرته الدهور على صخورها وطبقاتها ، ثم أكرهتها على التخلي لك عن الكثير من دفائن كنوزها

« ولقد خلقت الطبعة واتخذت من دواليبها رسلاً تذيع سحرك في الناس وتجعلهُ حلالاً لكل راغب وطالب بلا تمييز بين خاصة وعامة

«ولقد بنيت للناس معاهد يستظهرون فيها علومك ، ويمدحون بفنونك ، ويتذوقون سحرك ، ويحرقون لك البخور ويسبحونك ويمجدونك

ولقد شيدت للناس بيوتاً يداوون فيها أوجاع أبدانهم وعقولهم . فان نجع الدواء كان الفضل لك . وان لم ينجع كان اللوم على الابدان والاقدار لا عليك

« أجل . لقد فعلت كل ذلك من أجل الناس ، وفعلت أكثر من ذلك يا أخاه . ولكنك بعثتَ نفسك والناس من مخلوق عجيب خلقته ليكون خادمك وخادمهم . فاذا به يصبح سيّدك وسيّدهم من غير منازع . فواعجباً لمخلوق فاق خالقه . ولعبد ساد سيّده . أمّا اسم ذلك المخلوق فالدرهم .

« فبالدرهم تُباع رحمتك للموجوع . ويا ليتها كانت رحمة . ومعرفتك للجاهل ، ويا ليتها كانت معرفة . وخبزك للجائع ، وعطفك لليتيم ، وقراك لابن السبيل ، ودثورك للمقرور ، وثوبك للعريان ، وحريتك للرقيق ، وعدلك للمظلوم ، وسلواك للمفجوع . ودرهمك لا يُنال إلاّ ببذل ماء الوجه ، وسفح دم القلب ، وانفاق الدماغ ، وارهاق العضل ، وتخدير الضمير ، وحرق فتيلة العمر بلا شفقة ولا حساب .

وهكذا أصبحت يا أخي ألعوبة في يد مخلوقك العجيب . وأصبح من والاه مخلوقك سيد الناس ، وان يكن أشدهم فتكاً بالناس . وأصبح من جافاه مخلوقك عبداً للناس ، وان يكن أشدهم غيرة على خير الناس ، وأعرفهم بالسبل المؤدية الى سعادتهم . وبحثت تأسر بأمر الدرهم . فان قال لك اخترع لي ما ألهي به الجائع عن جوعه ، والعبد عن حريته ، وما أسلّي به أخا الضجر والبطر ، وما أخدع به طالب الجمال والكمال — اخترعت له في الحال من الملاهي ما يلهي حتى الحمار عن عليقه ، ومن اللذات ما يخدّر الوجدان . وخلقت لطالب الجمال والكمال تمائم دعوتها الفنون ، ولطالب المعرفة تعاويذ أسميتها سنة النشوء وتنازع البقاء وبقاء الأنسب . وخلقت لناشد الحرية والاستقلال تعاويذ سواها دعوتها الوطنية ، والقومية ، والجنسية ، وشرف المحتد واللسان ، وعلّقتها كلها بحواشي خرقة ذات ألوان ، وقلت للناس : ها هو ذا رمز حريتكم واستقلالكم . فافدوه بدمائكم — فآمن الناس بما قلت وبما فعلت وراحوا بدمائهم يشرقون .

« وأما أنا — أنا القلب الذي ما انفكّ ينبض منذ كان الزمان وكان الانسان — فأسألك : من أنا ؟ ومن أين ؟ والى أين ؟ ولماذا ؟ فلا تسمع ولا تجيب . وأشكو اليك أوجاعاً تأكلني من غضب وبغض وحقد وحسد وضيم وفجور وقلق وذعر وشك وحيرة فلا تتعطف عليّ بدواء سوى التملق والتخدير .

« وأسرّ اليك أشواقاً تساورني في هدأة الليل وضوضاء النهار الى حياة لا محاباة في عدلها ، ولا مؤاربة في صداقتها ، ولا عاقبة في اخائها ، ولا شناعة في جمالها ، ولا باطل في حقها ، ولا خوف في قلبها ، ولا موت في مفاصلها . الى كيان لا يبتدىء هنا وينتهي هناك ، بل تضيع في جوانبه البدايات والنهايات ، وتذوب في أعماقه الفواصل والمتناقضات ، وتتلاقى

في فضائه سائر الكائنات . فلا نزاع ولا صراع . بل تفهّمٌ يترفع عن النزال ، ومحبة لا تتدنس بالقتال

« أمرّ اليك أشواقي فتسخر بها وتدعوها أضغاث أحلام . وأنا أعرف منك بها وبمصادرها . واني لعلى يقين من انني ما اشتقت شيئاً إلاّ كان لهُ في كياني كيان . فلو انهُ كان عدماً لاستحال عليّ أن أشعر به وأن أشتاقهُ . ففي جوعي الدليل على وجود الغذاء . وفي عطشي الدليل على وجود الري . ولكن مسالكي قد استعصت على علمك وسحرك . فما نالني من طعامك غير الجوع . ومن ريّك غير العطش . ومن نارك إلاّ البرد . ومن نورك إلاّ الظلمة

« لقد تسلّمت يا أخي قيادة الناس زماناً ليس باليسير . فأحسنت وأسأت . لكنك أسأت أكثر مما أحسنت . وها هي ذي البشرية لا تنهض من حفرة إلاّ لتقع في أخرى . ولا يلتئم لها جرح حتى ينفتح في جسمها ألف جرح . واني لأسمعها في خلواتها وصلواتها تستغيث بي . تنحّ وناولني الأعنة ! »

***

بمثل هذا الكلام اسمع قلب الانسان المفجوع بآماله يخاطب عقلهُ المغرور بأوهامه ولا عجب. فالتوازن بين الاثنين قد اختلّ اختلالاً لا يطاق . فلا بدّ من تعديله وتصحيحه واني لأبصر أعنّة البشرية التائهة ما بين سمعها وبصرها تنتقل من يد الغرب — وهو توأمها الذي على ضوء البصر — الى يد الشرق — وهو توأمها السائر على هدى البصيرة . واني لأرى هذا الشرق يعبيء قواه منذ الآن للقيام بمهام القيادة الملقاة اليه

والذي يعبئهُ الشرق لن يكون باذن الله جيوشاً برية تحمل النقمة والثأر ولا عمارات بحرية تزرع الويل والدمار ، ولا أساطيل جوية تمطر الناس كبريتاً وناراً . بل سيكون بلسماً لجراح الانسانية الدامية ، ودعامة لما تصدّع من ايمانها بالعدل والاخوّة . وطعاماً وريّاً لما جاع وعطش فيها الى السلام الذي لا ينام على الأسنة والشفار ، والحرية التي تأبى فوهة المدفع مسكناً لها ، والحق الذي يغيث ولا يستغيث

وإذ ذاك فما على الشرق الآن إلاّ أن يدير وجه البشرية شطر الصخرة التي ارتدت لها قدماها من زمان . فصخرة الشرق ما برحت وضّاءة الجبين والسلّمُ الاوحد الواصل ما بين الارض والسماء والمنارات القائمة على جانبيْ الطريق المؤدي اليها لا تزال تشع القوة والايمان لكل قلب محبور بنشدان الحق الابدي . ولكل روح مقدام يحنّ الى مدينته المرصوصة هنا فيها من حياة لا تفنى . وسرور لا يخبو . وحرية لا تقيدها زمان ولا يحصرها مكان